أوراق إستراتيجية

April, 2006

Commentary Magazine
Islam's Imperial Dreams

أحلام الإسلام الإمبراطورية

By Efraim Karsh

April, 2006

عندما أشعلت الرسوم الهجائيّة للنبي محمد في صحيفة دانمركية موجة عالميّة من العنف الإسلامي أوائل هذه السنة، ركّز المراقبون، بشكل طبيعي، على التدمير الجائر والمتعمّد للسفارات ومراكز الأعمال ومؤسسات غربيّة أخرى. ولم يكن هناك إلتفات كبير الى الكلمات التي غالباً ما ترافقت مع أحداث الشغب- كلمات تحمل أصداء تاريخيّة مشؤومة.
" أسرعوا وإعتذروا من أمّتنا، لأنّكم إن لم تفعلوا، فسوف تندمون ، صرّح بذلك خالد مشعل قاءد حماس والحديث العهد بالنصر الساحق للمجموعة الإسلاميّة في الإنتخابات الفلسطينيّة:
هذا لأنّ أمّتنا تتقدّم ولأنّها منتصرة... سوف تُهزَمون بواسطة الله... غداً ستجلس أمّتنا على عرش العالم. هذا ليس من الخيال، وإنّما حقيقة. غداً سوف نقود العالم إنشاء الله. إعتذروا اليوم قبل أن لا ينفع الندم.

إنّ هذا الشعور بالإرتياح المتعلّق بشجاعة " أمّتهم " ونصرها الوشيك يُعتبر مألوفاً كما هي الروايات عن قائمة المظالم المرّة والطويلة والمتّصلة بفقدان السيادة الإسلاميّة التاريخيّة. وقد لمّح أسامة بن لادن مراراً الى إنهيار السلطة العثمانيّة في نهاية الحرب العالميّة الأولى وألغيت معها الخلافة العثمانيّة: " إنّ ما تذوقه أميركا الآن "، كما صرّح فوراً عقب هجمات 9/11، " ما هو إلاّ نسخة عمّا ذقناه نحن. لقد كانت أمّتنا الإسلاميّة تذوق نفس الخزي والإذلال على مدى 80 عاماً، إذ تمّ قتل أبناء هذه الأمّة وسُفحت دماؤها وإنتُهكَت حرماتها ". وأشار أيمن الظواهري، النائب الأوّل لبن لادن، بشكل أكبر حتّى، الى الماضي نائحاً على " تراجيديا الأندلس "- وهي نهاية الحكم الإسلامي في أسبانيا في العام 1942.
وقد نُبِذَت هذه المزاعم التاريخيّة بدورها وبشكل متكرر من قِبَل الغربيين، كونها مزاعم مضلّلة أو ضرب من ضروب تعظيم الذات أو الدعاية فحسب. إلاّ أنّ الإسلاميين جادين جداً، ويعلمون ماذا يفعلون. إنّ كلامهم لجهة العقيدة والممارسة عمره ألف عام، كما أنّه يتّصل بتيار خفي (من التوجهات) ميز الثقافة السياسيّة للإسلام منذ البداية. وعلى الرغم أنّ هذا الكلام كان يخفف ويلطّف في أوقات وأمكنة مختلفة، فإنّ التوق الإسلامي للسيادة المتحررة من الأغلال لم يتلاشى، وعاد الى السطح مجدداً في يومنا هذا بعنف ليشق طريقه تحت إسم الإمبراطوريّة.
" لقد أمِرتُ أن أقاتل كل الرجال حتّى يقولوا لا إله إلاّ الله "، مع هذه الكلمات الوداعيّة، لخّص النبي محمد النظرة العالميّة للإيمان والتي جاء بها الى العالم. وإنّ الإسلام، كدين عالمي، يتصوّر نظاماً سياسياً عالمياً حيث يعيش جميع البشر تحت الحكم الإسلامي سواء كمؤمنين أو كمجموعات تابعة وخاضعة. ولأجل إنجاز هذا الهدف، فإنّ الإسلام يستند الى جميع المسلمين البالغين الذكور والأحرار للقيام " بكفاح لا مساومة فيه في الطريق الى الله "، أي الجهاد.
وكما كتب المؤرّخ والفيلسوف عبد الرحمن إبن خلدون في القرن الرابع عشر: " إنّ الجهاد في المجتمع المسلم هو واجب ديني بسبب عالميّة المهمّة الإسلاميّة وبسبب الإلتزام "بتحويل" كل فرد الى الإسلام إمّا بالإقناع وإمّا بالقوّة ".
وكمسألة تاريخيّة، فإنّ ولادة الإسلام كانت مرتبطة بطريقة معقّدة مع الإمبراطوريّة. وعلى خلاف المسيحيّة والممالك المسيحيّة التي وُجِدَت ذات مرّة في ظل الدين المسيحي أو الى جانبه، لم يميّز الإسلام إطلاقاً بين السلطة المؤقتة والقوّة الدينيّة المندمجتين في شخص محمّد الذي فرّ من بلدته مكّة الى المدينة سنة 622 م ليصبح زعيماً سياسياً وعسكرياً بدلاً من أن يصبح مرشداً خاصاً.
فأمضى محمّد آخر عشر سنوات من حياته محارباً لأجل توحيد الجزيرة العربيّة لتكون تحت حكمه، وبالطبع فقد إبتكر مفهوم الجهاد بعد وقت قصير من هجرته الى المدينة كوسيلة لإغراء أتباعه المحليين للإغارة على القوافل المكيّة. ولولا

موته المفاجئ، لكان من الممكن أن تتوسّع سلطته أكثر الى ما وراء شبه الجزيرة العربيّة. وقد تعزز الإلهام القرآني خلال سنوات محمد في المدينة مع أبيات الشعر التي كانت تمجّد فضائل الجهاد وتمجّد الأحاديث والمواريث التي لا حصر لها المنسوبة الى النبي (الحديث).

إنّ هؤلاء الذين يشاركون في هذا النضال المقدّس سوف يكافَئون، وبسخاء، في الدنيا والآخرة، حيث سيقيمون في الحدائق الغناء المظللة، ويشبعون رغباتهم مع نساء طاهرات. ووفقاً لذلك، فإنّ الذي يُقتلون في خلال الجهاد الناشب، لا يجب أن يُندَبوا: " لقد إشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة؛ إنّهم يقاتلون في سبيل الله؛ يقتاون ويُقتلون...، هذا هو النصر المبين ".

إلاّ أنّ سبب جاذبية العقيدة لم يكن الآخرة فقط، فمع تحريم محاربة أمّة المؤمنين والإغارة عليها، فإنّ محمد حرم القبائل العربيّة من مورد الرزق التقليدي. وإستطاع النبي لبعض الوقت الإعتماد على الغنائم من غير المسلمين كبديل عن غنائم الغزو الضائعة، وهذا هو السبب الذي جعل النبي لا يمض أبداً في طريقه لتحويل جميع القبائل للدين الإسلامي والتي كانت تسعى لأن تجد لنفسها مكاناً في " السلم الإسلامي " (" Pax Islamica ")، ومع ما تقدّم من إيمانه بسيادة الإسلام وإلتزامه الذي لا يلين بأوسع إنتشار ممكن له، فهو بالكاد إستطاع إنكار تحوّل أولئك الراغبين بالتمسّك بالإسلام.

وما إن أصبحت الجزيرة العربيّة مسلمة بكاملها حتّى أصبح من الواجب العثور على مصدر جديد للثروة وعلى متنفس بديل للطاقات العدائيّة للقبائل العربيّة، وكان ما يريدون في الهلال الخصيب والشرق.

وفي خلال 12 سنة من وفاة محمّد، أصبحت إمبراطوريّة الشرق الأوسط الممتدّة من إيران الى مصر، ومن اليمين الى شمال سوريا، تحت علم الإسلام. وفي أوائل القرن الثامن، إمتدّ المسلمون بشكل كبير وأحكموا قبضتهم على آسيا الوسطى وجزء كبير من شبه القارّة الهنديّة، وحاصروا القسطنطينيّة، العاصمة البيزنطيّة وإكتسحوا شمال أفريقيا وإسبانيا، ولو لم يتم إحتوائهم في المعركة الشهيرة Poitiers في وسط فرنسا في العام 732 م، لكانوا توغلوا عميقاً في شمال أوروبا.

وعلى الرغم أنّ الطائفيّة والحرب الأهليّة قسّمت العالم المسلم في الأجيال التي عقبت وفاة محمّد، فإنّ المحرّك الأساسي للإسلام ظلّ المحرّك التوسّعي.

وقد فتحت السلالة الأمويّة الحاكمة القصيرة العمر (661-750) الطريق للخلفاء العباسيين الأكثر تديناً، ظاهرياً، حيث شدّد إستعدادهم لتقبّل غير المسلمين، من قبضة الإسلام على ملكه الواسع والمنتشر. ومن بغداد، عاصمة إمبراطوريّتهم، حكم العباسيون أصحاب السلطة السقيمة حتّى الغزو المنغولي في العام 1258.

أمّا أقوى الخلفاء المسلمين، فكانوا من بين الأتراك العثمانيين الذين ظهروا في أنطاليا (Anatolia)، والذين كانوا قد غزوا أوروبا في منتصف القرن الرابع عشر وفتحوا القسطنطينيّة في العام 1453 وقضوا على الإمبراطوريّة البيزنطيّة. وفي الواقع، إدّعوا تمدّدهم في كل شبه جزيرة البلقان وشرق المتوسّط.

وكأسلافهم العرب، كان العثمانيون بناؤون نشيطون للإمبراطوريّة بإسم الجهاد. ففي أوائل القرن السادس عشر، إنتزعوا مصر وسوريا من أيدي المماليك، وهم الجنود الأرقاء والمرعبين الذين إحتووا المنغوليين وقضوا على الممالك الصليبيّة، وسرعان ما تحوّلوا في ظل السلطان سليمان العظيم الى ناحية الشمال.

وفي أواسط القرن السابع عشر، بدا أنّهم قد إستعادوا توازنهم فإستعدّوا لإكتساح أوروبا المسيحيّة مرّة أخرى، بعد قتال مخيف سابق على بوابات فيينا في العام 1683- وذلك في 11 ايلول بين كل التواريخ.

وعلى الرغم أنّهم كانوا في حالة دفاع بحلول أوائل القرن الثامن عشر، كان من الممكن أن تبقى الإمبراطوريّة العثمانيّة ملقّبة " برجل أوروبا المريض "- مدة 200 سنة أخرى. ثمّ إنتقلت سلطتها الملكيّة الى أيدي القوّة الأوروبيّة المنتصرة في الحرب العالميّة الأولى، وذلك لنقول أنّه لم تكن أعمال مصطفى كمال أتاتورك، أب القوميّة التركيّة الحديثة، هي التي وضعت النهاية لكل من الخلافة العثمانيّة نفسها أو للتوسّع الإسلامي الإمبريالي على مدى قرون.

وبالنسبة للمؤرّخين الإسلاميين، فإنّ تواريخ عرض أحداث الإمبراطوريّة الإسلاميّة تمثّل نموذجاً للحماسة الدينيّة المشرقة والجهد غير الأناني في سبيل الله. وإنحرف عدد من المؤرّخين الغربيين، من جهتهم، الى الإعجاب بالحنكة الملموسة وتسامُح الحكم الإسلامي وأثنوا على رعاية الخلفاء للفنون والعلوم وعلى إستعدادهم الظاهر للتكيّف مع الأقليات الدينيّة.

هناك بعض الحقيقة في وجهَي النظر، إلاّ أنّ اي منهما لم تلتفت الى الدوافع الأعمق، وغالباً الأكثر صلابة لعمل " الأمّة " الممتدّة في حركة محمد. وبالنسبة للأجيال اللاحقة من الحكم الإسلامي، كان الحكم الإمبريالي مفروضاً محلياً ليس بواسطة المبادئ الدينيّة الخلاصيّة، وإنّما بواسطة رؤيا الإستيلاء والفتح لنبيّهم وبدعوته (الآمرة) للقتال وإخضاع غير المؤمنين.

وبما أنّ الأهداف العالميّة للإسلام قد تتضارب مع أوامره (النبي) الروحيّة والأخلاقيّة، فإنّ ذلك ظهر جلياً منذ بداية الخلافة. فبالرغم أنّ السلالة الملكيّة الأمويّة كانت قد رسمت صورة لسنوات الحرب التوسعيّة والدائمة لها وإعتبرتها " جهاداً في سبيل الله "، فإنّ ذلك لم يكن سوى حكم ذا مظهر كاذب كما كان علمانياً وإستبدادياً بشكل متزايد، إذ إنحرف الأمويون عن مواقفهم لجهة الممارسات والعادات الإسلاميّة وقيل أنّهم كانوا يحددون أياماً خاصّة لشرب الكحول- المحرّم بشكل خاص من قِبَل النبي- كما أنّهم لم يتورعوا عن الظهور عراة أمام جواريهم ومغنياتهم.

وحصل الإنقلاب ودخل الإسلام في الطور العباسي، حيث كان العباسيون مصممين على الحفاظ على الطرق الصحيحة للإسلام وعلى إلغاء الممارسات اللاإلهيّة لأسلافهم، إلاّ أنّهم، وكالأمويين، كانوا ملوكاً في المقام الأوّل. فبالنسبة إليهم، كان الإسلام وسيلة لتعزيز نظاق سلطتهم وللإستمتاع بفاكهة الأراضي المفتوحة، كما أنّهم كانوا يذعنون الى شروط القانون الديني الحديث (الشريعة) فقط الى الحد الذي كانت تخدم حاجاتهم، وإنغمسوا في نفس الرذائل- الخمر، المغنيات، الفسق والفجور- وأفسدوا بذلك سمعة الأمويين وتفوقوا عليهم.

أمّا الأهميّة الخاصّة التي كانت للعباسيين، فهي الفخامة والعظمة الماديّة. ففي مناسبة تتويج إبن أخيه كأوّل خليفة عباسي، صرّح داوود بن علي قائلاً: " نحن لم نثور أو نتمرّد لنصبح أغنى بالذهب والفضّة ". إلاّ أنّ الأبّهة المتزايدة دوماً للبلاط الملكي قد تكون هي التي شكّلت هيبة ومقام العباسيين، حيث لم تكن الصحون المرصّعة والنفيسة على طاولة الخليفة، الستائر الموشاة بالذهب، الشجرة الذهبيّة، والفيل الذهبي بعينَين من الياقوت والذي زيّن الساحة الملكيّة، إلاّ جزءاً ضئيلاً من الممتلكات الوافرة التي تجعل الشاهد يتأثر بهذا التبذير.

وكانت ثروة الإمبراطوريّة مركّزة بشكل أكبر في أيدي القلّة على حساب الأكثريّة. ففي حين كان الخليفة يهب آلآف الدراهم لشاعر مفضّل ما بسبب إلقائه بضعة أسطر، كان العمال العاديون في بغداد يحملون درهماً أو درهمين في الشهر الى بيوتهم. وأمّا بما يتعلّق بالمسائل الأكثر بعداً، فقد أظهر الخلفاء إهتماماً ضئيلاً لجهة هداية الناس للإيمان مفضّلين إستعمار أراضيهم ومصادرة ثرواتهم وجهودهم. فحتى القرن الثالث الإسلامي، لم يكن هذا الحجم من الناس قد إعتنقوا دين أسيادهم الإمبرياليين، وكان هناك عمليّة تنبعث من الأسفل حيث كان الناس من غير العرب يجهدون للتهرّب من دفع الجزية ولإزالة الحواجز التي تعوق تقدّمهم. ولكي تصبح الأمور أسوأ، قامت العاصمة (بغداد) بنهب ثروات الولايات، وهي ممارسة إفتُتِحَت في زمن محمّد لتبلغ أوجها في ظل الحكم العباسي. وإتّحد الحكم الضعيف للحكومة مع الإستغلال الفاضح لتنطلق بذلك ثورات عديدة في كل أنحاء الإمبراطوريّة.

إنّ التوتر بين المحيط والوسط المركزي كان ليصبح، بالطبع، السمة المميزّة للتجربة الإمبرياليّة الإسلاميّة، فحتّى في أيّامها الأولى، تحت حكم الإمبرياليين، كانت الإمبراطوريّة ممتدّة الى حد كبير بشكل يتعذّر معه التواصل والسيطرة بسبب الوسائل غير الملائمة. ففي ظل الحكم العباسي، وقعت عدد من المقاطعات تحت رحمة العائلات الحاكمة المحليّة. فمع حكومة غير فعالة، إختُزِلت الحكومة في تكتل كينونات متّحدة فقط بعوامل خادعة من اللغة والدين. وعلى الرغم أنّ العثمانيين عكسوا مؤقتاً هذا التوجّه، فقد عادت طموحاتهم الإمبرياليّة وإنحرفت أيضاً في النهاية بسبب الإنقسام الداخلي.

وفي تاريخ الإمبراطوريّة الإسلاميّة الطويل، تمّ تجاوز الفجوة بين الفخامة والعظمة الخادعة وبين القوى المركزيّة، مرّة ثانية، بواسطة قوّة السلاح، وجعلوا من العنف عنصراً أساسياً من الثقافة السياسيّة الإسلاميّة. إذ لم يمضِ وقت طويل على وفاة محمّد، حتّى قام خليفته أبو بكر بقمع ثورة واسعة بين القبائل العربيّة. وبعد 23 سنة، قتل الخليفة عثمان بن عفان، قائد الأمّة، من قِبَل متمرّدين ساخطين، وجوبهَ خليفته علي بن أبي طالب معظم فترة حكمه بالعصيان المسلّح، وأبرز هذا العصيان كان من قِبَل معاوية بن أبي سفيان الذي تابع تأسيس الحكم الأموي بعد إغتيال علي. وتمسّ: خلفاء معاوية بإستعمال القوّة وإعتمدوا بشكل رئيسي على القوّة الماديّة أو الجسديّة التي أُستُهلك معظمها في سبيل السلطة، ولمنع أو لإخماد الثورات في زوايا إمبراطوريتهم المختلفة. والشيء نفسه كان صحيحاً بالنسبة للعباسيين خلال قرون حكمهم الطويلة.

وغالباً ما يعرض الأكاديميون الغربيون الإمبراطوريّة العثمانيّة كإستثناء للنموذج الأوّل. وفي الواقع، فقد تعاملت الخلافة بلطف فعلاً نسبياً مع رعاياها من غير المسلمين- حيث كانوا يحصلون على هذه المعاملة فقط هندما تخضع مؤسساتهم الإجتماعيّة والقانونيّة الوضعيّة للنظام الإسلامي.

وعندما تجرّأت هذه المجموعات وتساءلت عن مكانتها الثانويّة، هذا عدا محاولة التحرر من النير العثماني، فقد تمّ قمعها وسحقها بوحشيّة. وفي القرن ما بين فتوحات نابليون في الشرق الأوسط وبين الحرب العالميّة الأولى، بدأ العثمانيون بإراقة الدم في رد على الطموحات القوميّة لرعاياهم الأوروبيين؛ حرب الإستقلال اليوناني في العشرينات من القرن الثامن

عشر؛ ثورات الدانوب في العام 1848 والحرب العثمانيّة- الإغريقيّة في العام 1897- وكلّها ذاكرة مؤلمة لكلفة مقاومة الحكم الإمبريالي الإسلامي.

ولم يكن هكذا عنف مقصوراً على أوروبا العثمانيّة، فقد تأثّرت أيضاً الولايات الآسيويّة- الإفريقيّة لتركيا، ولو بشكل أقل، بجرثومة القوميّة وكانت مسرحاً للضرر والأذى والتدمير. وقد إستخدم الجيش العثماني، أو بدائله، القوّة ضد الثورات الوهابيّة في Mesopotamia والمشرق في أوائل القرن التاسع عشر وضد النزاع الأهلي في لبنان في أربعينات القرن الثامن عشر (والتي بلغت أوجها في العام 1860 بمجازر في جبل لبنان ودمشق)، وضد تحرّك الثورات الكرديّة. وفي رد على الصحوة الوطنيّة للأرمن في التسعينات من القرن الثامن عشر، قتل Constantinople مئات الآلاف- وهو طعم الرعب الذي ألقى بظلاله على الأرمن خلال الحرب العالميّة الأولى، وليس من الصعب تمييز ميزات هذه التجربة الإمبرياليّة في العالم الإسلامي اليوم. لقد ظلّت القوّة الماديّة الأداة الرئيسيّة إنّ لم تكن الوحيدة في الحديث السياسي في الشرق الأوسط. ففي كل منطقة لا يزال الزعماء المطلقين (الإستبداديين) يحلون المؤسسات السياسيّة. أمّا المواطنيّة فهي مترادفة الى حد كبير مع الخضوع؛ فالقوّة غالباً ما تكون مركّزة في أيدي أقليات عدائيّة صغيرة؛ وتسود الصراعات الدينيّة، العرقيّة والعشائريّة؛ وإنّ بقائهم مرتبط بسبق الإستيلاء على السلطة والهيمنة عليها.

وعلى المستوى المحلي، أنتجت هذه الظروف سياسات لا ليبراليّة بشكل أكبر في العالم. فالمعارضة السياسيّة يتم التعامل معها بالقمع، والخلافات الدينيّة والعرقيّة يتم تسويتها بالقتل والكفاح المميت (على نحو متبادل)، وهناك أمثلة نذكر منها، مذبحة سوريا التي راح ضحيتها 20000 من الناشطين المسلمين في أوائل الثمانينات، والمعاملة الوحشيّة لشيعة العراق والمجتمعات الكرديّة حتّى حرب 2003، وحملة الإبادة الجماعيّة التي تتواصل الآن في دارفور من قِبَل حكومة السودان والميليشيات المتحالفة معها.

وبما يعود الى السياسة الخارجيّة في الشرق الأوسط، فهي كانت تواصل أيضاً إستخدام القوّة الصارمة والتي تتسلسل من الإرهاب والمراقبة الى العدوان السافر مع أمثلة متعددة جداً ومألوفة. إنّ ما يعزز هذه العادات في الواقع هو أنّ الإسلام، وحتى هذا اليوم، محتفظ بطموحاته الإمبرياليّة. لقد تمّ القضاء على الإمبراطوريّة الإسلاميّة الكبرى وتُرِكَ مكان الخلافة شاغراً، إلاّ أنّ حلم السيطرة الإقليميّة والعالميّة ظلّ حياً بشدّة، فحتى المذهب العلماني المزعوم للخط العروبي كان إسلامياً في مزاجه، نظرته العالميّة ورؤيته للإمبرياليّة. وفي كلمات لنوري السعيد، الذي كان ولوقت طويل رئيساً لحكومة العراق والبطل الأوّل والبارز الحامل لهذا المبدأ: " رغم أنّ العرب مرتبطين طبيعياً بأرضهم الأم، فإنّ وطنيتهم ليس مقيّدة بالحدود. إنّه الطموح لإعادة إحياء حضارة كبرى متسامحة كانت في فترة الخلافة الأولى ".

وهذه " الحضارة الكبرى المتسامحة "، إنتشرت، وبيسر، الى ما وراء شرق أوسط اليوم ولم تخطئ أولئك الذين يأملون بإستعادتها.

وكزعماء القاعدة، فإنّه هناك عدد من المسلمين والعرب يتوقون بشدّة ويلا خجل لإعادة فتح إسبانيا ويعتبرون طردهم من البلاد في العام 1592 ظلماً تاريخياً مميتاً، وهم بإنتظار خرابها.

وبالطبع، وبما أنّ الهجرة ومعدلات المواليد الأعلى قد زادت الى حد كبير عدد المسلمين في أوروبا نفسها على مدى العقود العديدة الماضية، فقد أصبحت البلدان التي لم تكن قد حُكِمَت، أبداً، من قِبَل الخلافة، هدفاً للطموح الإمبريالي الإسلامي. ومنذ أواخر الثمانينات، نظر الإسلاميون الى التزايد السكاني من المسلمين الفرنسيين كإثبات على أنّ فرنسا، أيضاً، أصبحت جزءاً من الوطن الإسلامي. وفي بريطانيا، فإنّ حتى أكثر العناصر إعتدالاً في المجتمع المسلم صريحون بإعلان أهدافهم، وكما قال الراحل زكي بدوي، عميد الحوار بين الأديان في المملكة المتّحدة، " الإسلام دين عالمي، وهو يهدف الى إيصال رسالته الى كل زوايا الأرض. ويأمل الإسلام أن يصبح كل المجتمع الإنساني مجتمعاً مسلماً واحداً في يوم من الأيام ".

إنّ أجندة إخضاع العالم هذه، سواء العسكريّة أو الرؤية الأكثر إعتدالاً، لا تزال تلقى الإنكار والتصرف حيالها بلطف وكياسة من قِبَل عدد من الغربيين المثقفين. فبالنسبة للمفكرين، خبراء السياسة الخارجيّة والسياسيين على حد سواء، فإنّ " الإمبراطوريّة " أو " الإمبرياليّة " ما هي إلاّ مقولات تنطبق حصرياً على القوى الأوروبيّة ومؤخراً جداً على الولايات المتّحدة. وبهذه النظرة الى الأمور، فإنّ المسلمين، سواء في الشرق الأوسط أو في أي مكان، هم أهداف فحسب- الضحايا الذين عانوا طويلاً من تعديات الآخرين وإنتهاكاتهم.

وبالإفتقار الى ديناميكيّة مستقلّة وداخليّة خاصّة بالإسلام، فإنّ تاريخ المسلمين ما هو إلاّ توظيف لتفاعلهم التعيس مع الغرب الملتزم بالترضية والتعويض.

وقد سيطر هذا المنظور على التفسير الواسع لهجمات 9/11 وبأنّها لك تكن إلاّ رد فقط على السياسة الخارجيّة الأنانيّة والمتعجرفة (المزعومة) لأميركا، خصوصاً بما يتعلّق بالصراع العربي- الإسرائيلي.

وعلى كل حال، وكما شاهدنا، فإنّ التاريخ الإسلامي كان أي شيء ما عدا أنّه كان تاريخاً متفاعلاً. فمن محمد الى العثمانيين كانت قصّة الإسلام. قصّة إرتفاع وهبوط لعدائيّة إمبرياليّة تثير الدهشة، ولم تكن أقل أهميّة من الأحلام لإمبرياليّة الأخرى أبداً. فعلى الرغم من أنّ هذه الأحلام قد أحبطت مراراً أيّة محاولة للتطوّر السياسي والإجتماعي السلمي للعالم المسلم، فإنّها أحدثت نزوات متكررة بالإنتقام وأحلاماً بإستعادة الماضي ليس أقل من الأحلام السابقة، كما سببت جهوداً عسيرة وقاتلة لتحويل الحلم الى حقيقة. أمّا اليوم، وإذا كانت أميركا ملعونة في العالم المسلم، فإنّ ذلك ليس بسبب سياساتها الخاصّة، وإنّما لأنّها تسد الطريق، كونها قوّ' عالميّة متفوقة، أمام الإنجاز النهائي للحلم القديم بإستعادة " المجد الضائع " للخلافة، كما قال الظواهري.

إنّ هذه الرؤية لم تعد مقصورة على جماعة متطرّفة صغيرة. نحن نراها في الدعم الطاغي لهجمات 9/11 في كل أنحاء العالمين العربي والإسلامي، وفي إستثارة العواطف والإعجاب بأعمال بن لادن القاتلة خلال أزمة الرسوم الكاريكاتوريّة الدانمركيّة، وفي نتائج أخيرة لإستطلاعات تؤشّر الى مخزون التعاطف الهام بين المسلمين في بريطانيا مع مشاعر وحوافز المفجرين الإنتحاريين الذين هاجموا لندن في تموز الفائت وفي التصوّر الخيالي التاريخي لكثير من العرب والمسلمين فإنّ بن لادن ليس أقل من تجسيد جديد لصلاح الدين هازم الصليبيين وفاتح القدس. وبهذا الوعي، فإنّ حرب الوطن الإسلامي لأجل السيادة على العالم ما هو إلاّ مطلب موروث وجليل يبعد تخطّيه.

وبالعكس، فقد إلتقت هذه الحرب نفسها مع الهجوم المعاكس من قِبَل الولايات المتّحدة ومع التدخل الغربي في قلب الوطن الإسلامي، مما جعل الأمور تُصعَّد الى مرحلة جديدة من الخبث والمكر.

وتتسابق البلدان الشرق أوسطيّة، الحركات الإسلاميّة والحركات الجاذبة للمسلمين التقليديين بشكل عنيف وضار للإمساك بمواقع السلطة والنفوذ ضد الأميركيين والأحزاب العلمانيّة.

وبالنسبة للإسلاميين، فإنّ الرهان مرتفع بالطبع، لأنّ النخب السياسيّة في الشرق الأوسط وأماكن أخرى لم تروّض نفسها أبداً على حقيقة بأنّ ليس هناك من " أمّة " عربيّة أو إسلاميّة، وإنّما هناك دولاً إسلاميّة حديثة فقط مع سلالات حاكمة محليّة ومسؤوليات خاصّة بها، وبأنّ الحكم الإمبريالي سوف يموت. فقد إهتمّت الدولة بالرسالة الشهيرة للظواهري الى أبو مصعب الزرقاوي.

وإذا ما نجحت إستراتيجيّة القاعدة في العراق وأماكن أخرى، كما أشار الظواهري على نائبه، فيجب أن تأخذ في الحساب العطش الشديد والمتنامي بين عدد كبير من العرب للديمقراطيّة والحياة الطبيعيّة وبأن لا يعملوا على عزل الرأي العام الشعبي من خلال أعمال كالهجمات الإنتحاريّة على مسلمين آخرين. وكما ختم الظواهري، فإنّه بواسطة تسخير الدعم الشعبي فقط سيكون بالإمكان الوصول الى السلطة وبالوسائل الديمقراطيّة نفسها، وبذلك يترسّخ حكم المجاهدين في العراق ومن ثمّ يتحرّكون الى الأمام لفتح وإخضاع مناطق أكبر وابعد وذلك لفرض إرادة الإسلام بشكل أوسع.

وهناك شيئاً آخراً من نفس المنطق يشكّل أساساً واضحاً لظهور حماس المتآمر في السلطة الفلسطينيّة، ولمحاولة الإخوان المسلمين في مصر إستغلال الطلب بإنتخابات حرّة هناك، وتبوّؤ محمود أحمدي نجاد السلطة في إيران. فكما ذكر Mark Mackinnon في تقريره في Toronto Globe and Mail، فإنّ بعض المحللين يرون الآن " محوراً جديداً للإسلام " ينشأ في الشرق الأوسط يوحّد حزب الله، حماس، إيران، سوريا، الإخوان المسلمين، عناصر شيعيّة أخرى في العراق وآخرين في تحالف مناهض للأميركيين والإسرائيليين تساندهم بذلك روسيا.

وعمّا إذا كانت بنية كهذه موجودة أم لا أو ما إذا كان بالإمكان أن تتشكّل، فإنّ الحقيقة هي أنّ وقود الإمبرياليّة الإسلاميّة لا يزال متفجراً والى الأبد، وهو بعيداً جداً عن الإخماد.

إنّ إنكار هذه القوّة هو قمّة العناء، كما أنّ تصور تهدئة أو تحريف هذه القوّة ما هو إلاّ تلاعب، إذ فقط عندما يُهزَمون وعندما لا يعود الإسلام أداة للطموح السياسي الإسلامي، ستكون شعوب الأراضي الإسلاميّة وباقي العالم قادرة على النظر الى الأمام والى المستقبل لا يحمل عبء " الصلاح دينيين " وأحلامهم الدمويّة.